الباب الأول

تمهيد تاريخى

للفترة من

٢١ إلى ١٣١٨ هـ

٦٤١ إلى ١٩٠٠ م

obeikandl.com

مقدمة الباب الأول

مسيرة الأمم عبر التاريخ تتأثر، سلبًا أو إيجابًا، بنظم الحكم، والعقائد والشرائع التى تسودها، وإذا كان الطب من الأمور التى يحتاج إليها الإنسان عبر العصور المختلفة، فإنه لاشك قد تأثر بنظم الحكم فى الحقب التاريخية المتتابعة، وصعدت حضارات واندثرت أخرى، وارتبط الصعود والهبوط فى الطب وصناعته والتأليف فيه بكل ذلك. لذلك رأينا من المناسب أن نقدم تمهيدًا تاريخيًا لتعاقب العصور من الفتح الإسلامى لمصر (٢١هـ و ٦٤١م) إلى سنة (١٣١٨هـ و ١٩٠٠م).

ونعتقد أن هذا التمهيد ييسر للقارئ تتبع نظم الحكم والحكام واختلافهم من عصر إلى عصر، حتى يتعرف إلى أثر هذه النظم وهؤلاء الحكام فى صناعة الطب والتأليف فيها.

ويتضح للقارئ أن التقلبات فى نظم الحكم كانت ذات أثر عميق فى صناعة الطب، وتقدمها وتخلفها فنرى أن الازدهار الاقتصادى والسياسى للأمة يتبعه تطور فى صناعة الطب والتأليف فيها، ويظهر ذلك جليًا فى العصر الفاطمى، ونرى التخلف والظلم يتبعهما تدهور فى العلم وصناعة الطب كما نرى فى العصر العثمانى.

وعلى رغم التذبذب فى الحالة الاقتصادية والسياسية فى مصر منذ الفتح الاسلامى وحتى بداية القرن العشرين، فإن تراث الأمة من مؤلفات ومصنفات حفظته المخطوطات لعب ومازال يلعب دورًا فى تطور العلم والطب.

بيان بالعصور وأزمانها

فى الفترة قبل دخول الإسلام إلى مصر

العصر	الفترة الزمنية		
عصر ما قبل التاريخ	٤٨٠٠	– ٣١٠٠	ق . م .
العصر العتيق	٣١٠٠	– ٢٧٥٠	ق . م .
الدولة القديمة	٢٧٥٠	– ٢٢٥٠	ق . م .
عصر الانتقال الأول	٢٢٥٠	– ٢٠٥٠	ق . م .
الدولة الوسطى	٢٠٥٠	– ١٨٠٠	ق . م .
عصر الانتقال الثانى	١٨٠٠	– ١٥٧٥	ق . م .
الدولة الحديثة	١٥٧٥	– ١٠٧٠	ق . م .
العصر المتأخر	١٠٧٠	– ٣٣٢	ق . م .
العصر البطلمى	٣٣٢	– ٣٠	ق . م .
العصر الرومانى	٣٠ ق. م.	– ٣٢٣	م .
العصر البيزنطى	٣٢٣	–٦٤١	م .

obeikandl.com

بيان بالعصور الاسلامية فى مصر

منذ الفتح الاسلامى حتى الآن

العصر أو الفترة	الفترة الزمنية	
	بالتاريخ الجريجوريانى	بالتاريخ الهجرى
الفتح الاسلامى	٢١	٦٤١
الخلفاء الراشدون	٢١ – ٣٨	٦٤١ – ٦٥٨
العصر الأموى	٣٨ – ١٣٢	٦٥٨ – ٧٥٠
العسر العباسى	١٣٢ – ٢٥٤	٧٥٠ – ٨٦٨
العصر الطولونى	٢٥٤ – ٢٩٢	٨٦٨ – ٩٠٥
العصر العباسى	٢٩٢ – ٣٢٣	٩٠٥ – ٩٣٥
العصر الأخشيدى	٣٢٣ – ٣٥٩	٩٣٥ – ٩٦٩
العصر الفاطمى	٣٥٩ – ٥٦٧	٩٦٩ – ١١٧١
عصر حكم بنى زنكى	٥٦٧ – ٥٧٠	١١٧١ – ١١٧٤
العصر الأيوبى	٥٧٠ – ٦٤٨	١١٧٤ – ١٢٥٠
العصر المملوكى	٦٤٨ – ٩٢٢	١٢٥٠ – ١٥١٧
العصر العثمانى	٩٢٢ – ١٢٢٠	١٥١٧ – ١٨٠٥
أسرة محمد على	١٢٢٠ – ١٣٧١	١٨٠٥ – ١٩٥٢
قيام الثورة	١٣٧١ – الآن	١٩٥٢ – الآن

الفتح الإسلامى لمصر

إن أفضل ما نسجله هنا، حتى نتفهم الظروف السياسية والاجتماعية السائدة عندما دخل المسلمون مصر، أن نثبت وصف المقريزى لشعب مصر عند الفتح الإسلامى:

«اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت جميعها مشحونة بالنصارى على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم. أحدهما أهل الدولة، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة المسيحية الملكية»[1] وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومى، والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأجناسهم مختلفة لايكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائلى الأصل من غيره وكلهم يَعَاقِبة[2] فمنهم كتاب المملكة، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة ومنهم أهل الخدمة والمهنة، وبينهم وبين الملكيين أهل الدولة من العداوة مايمنع زواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضا»[3].

وقد دخل المسلمون مصر، وبطريركها، الذى اختاره الشعب المصرى المونوفيزنى والإكليروس الأنبا بنيامين هاربا فى الصعيد من وجه الطغيان الذى قام به قيرس[4]. الذى شرع فى حملة من الاضطهاد استمرت على رقاب العباد عشر سنوات، ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعذيب والاضطهاد[5].

ويجمع المؤرخون الأوربيون، على أن الحماقة من جانب قيرس هى التى مهدت السبب لفتح المسلمين لمصر. فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى سلط عليهم قيرس، ودعوا الله أن ينجيهم من شروره وآثامه، بل إن الشعب السكندرى، وخاصة المونوفيزنى منه قابل الفرس بالترحاب، حين دخلوا مصر سنة ٦١٩م. ولما جاء المسلمون إلى مصر استقبلهم المصريون، كما يستقبلون المخلصين والمحررين.

ولم يذكر التاريخ أن حربا أو اشتباكا عسكريا وقع بين أهل مصر من اليعاقبة وبين المسلمين. ولكن الحرب والاشتباكات العسكرية كانت بين جيش عمرو بن العاص، وبين جنود الروم المحتلين لمصر. بل إن العدل والأمانة التى اشتهرت بها هذه الطلائع الإسلامية قد فتحت لهم القلوب وأزاحت من

(١) وهم أصحاب المذهب الخليقدونى، مذهب وحدة الإرادة (المونوتليتى) وقد كان مذهب الروم الذين حكموا مصر، وهم الكاثوليك.

(٢) هم الأقباط المصريون، ذوى المذهب المونوفيزنى، وهم الأرثوذوكس. نسبة إلى يعقوب بن اسحق.

(٣) المقريزى – الخطط ٢٩٣/٤

(٤) كان مطرانا لمدينة قاسيس بالقوقاز، واختاره هرقل ليقوم بمهمة توحيد المذهبين اليعقوبى والملكى.

(٥) مثل ما ترويه القصص عن تعذيب ميناس شقيق الأنبا بنيامين.

طريقهم أقوى العقبات، وهى كراهية الشعوب ومعاداتها[1]. ولم يكن فى الفرما سوى الحامية البيزنطية، وفى حصن بابليون كان جنود الروم و قائدهم تيودور، وفى يوم الإثنين ١٩ إبريل سنة ٦٤١م فى عيد الفصح غادر البيزنطيون حصن بابليون، وبعدها سارت الجيوش الإسلامية نحو الإسكندرية، وكانت الإسكندرية من أجمل المدن وأحصنها فى ذلك الزمان، وتغص بعشرات الألوف من الجند والروم، وقد غادرها جيش بيزنطة فى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢م وانسحب الروم ودخل المسلمون إلى الإسكندرية.

وفى هذه المناسبة ينبغى أن نذكر الفرية التى تدعى وتنسب إلى جيش المسلمين الفاتح للإسكندرية أنه أحرق مكتبة الإسكندرية، وقد رد عليها العديد من المؤرخين، واستدلوا على ذلك بأن ذكر المكتبة لم يرد فى أى من مصادر التاريخ الإسلامى أو البيزنطى أو القبطى التى كتبت فى القرون التى أعقبت الفتح، وأن جميع الذين زاروا الإسكندرية قبل الفتح الإسلامى لم يشيروا إلى وجود مكتبة بها.

وقد بادر عمرو بن العاص بإشعار أقباط مصر بروح التسامح الإسلامى، واحترامه لمختلف العقائد، فأصدر كتاب أمان للأنبا بنيامين بطريك الأقباط هذا نصه:

«أينما كان بطريق الأقباط بنيامين نعده بالحماية والأمان، وعهد الله فليأت البطريق هنا فى أمان واطمئنان لينى أمر ديانته ويرعى أهل ملّته». ولم يكن بنيامين يطمع فى أكثر من ذلك لكى يظهر من مخبئه ويدخل إلى الإسكندرية دخول الظافرين حيث احتفل به الشعب احتفالا رائعا بعد غيبة ثلاثة عشر عاما [2].

وظل عمرو بن العاص فى ولاية مصر حتى عزله عثمان بن عفان سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥ م وجاء بعده فى الولاية عبد الله بن سعد بن أبى السرح ثم استولى على إمارة مصر محمد بن أبى حذيفة، وعين على بن أبى طالب رضى الله عنه قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م.

وتوالى الأمراء بعد ذلك، ولعل أطول مدة قضاها أحد الأمراء فى مصر خلال هذه الحقبة هو مسلمة بن مخلد الذى ولى مصر ٤٧ هـ /٦٦٧م، وتوفى سنة ٦٢ هـ/٦٨٢ م. وتبادل الأمراء على مصر الحكم، ومرت السنون.

ولعل أهم حدث يهمنا فى هذا الكتاب، هو إقدام عبد الملك بن مروان[3] سنة٨٥ هـ/٧٠٤م على خطوة من خطواته الإصلاحية الكبرى فأصدر أمره بجعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية التى تكتب بها الدواوين، ونفذ ابنه عبد الله هذه التعليمات فى مصر، حيث كانت الدواوين تكتب حتى هذا التاريخ باللغة القبطية، فبدىء فى كتابتها باللغة العربية.

(١) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر ٣ / ٣٩٠

(٢) فى الثالث من شهر يناير سنة ٦٦٢م (٤٢ هـ) طويت حياة الأنبا بنيامين بطريك الأقباط المصريين لتسع وثلاثين سنة. شهد فيها انسحاب الروم ودخول الفرس إلى مصر، ثم انسحابهم منها وعودة الروم، ومقدم المسلمين وانسحاب الروم

(٣) توفى يوم الخميس للنصف من شهر شوال سنة ٨٦هـ / ٧٠٥ م

العصـــر العبـــاسى

١٣٢-٢٥٤هـ/٨٦٨-٩٠٥م

ظلت الدولة الأموية تســعين ســنة، قامت بعدها الدولة العباسية فى ١٣٢هـ/ ٧٥٠م ولعل أهم ما حدث فى أول حكم العباسيين هو شروع المسلمين فى تدوين الكتب، فقد بدأ عهد التدوين سنة ١٤٣هـ/ ٧٦٠م، ففـى مصـر صنف الليث بن ســعد وعبد الله بن لهيفة، كما ألف وصنف الكثيرون فى الأمصار الإســلامية المختلفة وكثر تبويب العلم وتدوينه، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، أما قبل هذا العصر فكان ســائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويــرددون العلم عن صحف صحيحة ولكنها غير مرتبة. وبعد أن بدأ عصر التدوين، سهل تناول العلم.

وولى إمارة مصر عدد كبير من الأمراء والولاة، وذلك تحت خلافة العباسيين وكان الخلفاء العباسيون:

الخليفة عبد الله السفاح – عبد الله أبو العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (ت ١٣٦هـ/ ٧٥٣ م)

الخليفة أبو جعفر المنصور– وفى عهده بدأ التدوين (ت ١٥٨ هـ/٧٧٥م)

الخليفة محمد المهدى بن جعفر المنصور(ت ١٦٩هـ/ ٧٨٦م)

الخليفــة موسى الهادى بن محمد المهدى – اعتلى الخلافة سنة واحدة وشهرين (ت ١٧٠هـ/ ٧٨٧م)

الخليفة هارون الرشيـــد (ت ١٩٣ هـ/ ٨٠٩م)

الخليفة محمـد الأمـــين (قتل ١٩٨هـ/ ٨١٣م)

الخليفة المأمـــــون (ت ١٠رجب ٢١٨هـ /٨٣٣م)

الخليفة المعتصم(ابواسحق محمد المعتصم بالله بن الرشيد) (ت الخميس ٢٩ ربيع الأول ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م)

الخليفة الواثـــق (أبو جعفر هارون الواثــق بالله) (ت ٢٤ ذى الحجة٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م)

الخليفة المتوكل على الله (أبو الفضل جعفر بن الخليفة المعتصم) (ت ٥ شوال ٢٤٧هـ / ٨٦١ م)

الخليفة المنتصر بالله ابن المتوكل (ت ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢م)

الخليفة المستعين بالله (أبو العبـــاس أحمد بن المعتصم) (قتل٢٥٢هـ/٨٦٦م)

الخليفة المعتز بالله الزبير وقد ولى الخلافة ٢٥٢هـ/٨٦٦م وخلع ٢٥٥ هـ ٨٦٩م

وقد كانت إمارة مصر لأحمد بن مزاحم الذى استخلف أرخوز بن أولوغ التركى صاحب الشرطة على إمرة مصر، وأقر المعتز هذا الاختيار، إلى أن جاء أحمد بن طولون فى شهر رمضان سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م. وأصل وجود الأتراك، أن المعتصم كان قد اختط سياســة الاعتماد على الأتراك فى حرســه الخاص بدلا من الفرس والعــرب (فقــد كانت أمه تركية) وقد أصبح منهم القادة وولاة الأقاليــم. ولعل ذلك بالإضافة إلى اضطهاده للعرب كان أولى خطوات التصدع الذى أصاب الدولة العباسية.

وبنهاية خلافة المعتز بالله، يكون أثر الخلافة العباســية عير ذى قيمة تذكر فى مجريات الأمور بمصر. فقد تحولت إلى حكم الطولونيين.

العصـــر الطولونـــى

٢٥٤ـ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ـ٩٠٥ م

دخل أحمد بن طولون مصر يوم الأربعاء ٢٣ رمضان ٢٥٤ / ٨٦٨ م، وقد أنابه الأمير باكباك أحد القادة الأتراك على صلاة مصر. وفى الوقت الذى كان فيه الخلفاء العباسيون يتهاوون واحداً إثر الآخر عن عرش الخلافة كان أحمد بن طولون يوطد حكمه فى مصر. وبنى جيشـا، وأسـس لنفسـه دار حكم جديدة، بل مدينة جديدة غير الفسطاط والعسكر، وهى مدينة القطائع[1]، وسَكَّ الدينار الطولونى. وازدهرت فى عهده الزراعة والصناعة والتجارة، وبنى مسـجد بن طولون (٢٦٤ هـ/ ٨٧٧م)[2]. وكان المسـجد- كما ينبغى أن تكون المساجد – دار علم وبر وعلاج. وألحق به بيمارستان لمعالجة المرضى وإيواء العاجزين، وشرط ألا يعالج به جندى أو مملوك حتى يكون خالصا لعامة الشعب. وقد حفظ لنا التاريخ اسم كبير أطباء هذا البيمارستان وهو سـعيد بن توفيل القبطى[3] كما كان من أشـهر أطبائه الحسـن بن زيرك[4]. وقد توفى أحمد بن طولون يوم الاثنين الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٤ م. وتولى بعده ابنه خمارويه (ت٢٨٢هـ) الذى أصبـح أمـيراً على مصر والشـام وكان عهده قمة الإزدهار. ثم توالى بعده على إمارة مصر ابنه أبو العسـاكر جيش، وابنه هارون، وكان دخول محمد بن سليمان إلى مصرنهاية الدولة الطولونية.

وفيما يتعلق بموضوع كتابنا. فإننا نشـير إلى المؤرخ أبى محمد عبد الله بن محمد المدينى المشـهور باسم «أكيكـوى» ومن بين مؤلفاته «سـيرة أحمد بن طولون» وهو أكثر الكتـب تفصيلا عن هذه الحقبة من تاريخ مصـر. وهو يلقى ضوءا على صناعة الطب فيحدثنا كيـف كان للأطباء أزياؤهم الخاصة، وكان لكل طبيب أعوانه ومسـاعدوه من الشَّاكرية، ومهمتهم دق العقاقير وعجن الأدوية ونفخ النار. وكانت للأطباء وسائلهم فى الفحص والعلاج فيجسون النبـض أو يفحصون الفضلات، وكانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة التى يأكلها، وكان بعضهم يمارس علـم النفس فى علاج مرضاه[5].

***

(١)تقع عند سفح المقطم، حيث يوجد ميدان صلاح الدين فى الوقت الحاضر بالقلعة

(٢) المهندس الذى صممه وأشـرف على تنفيذه هو سـعيد بن كاتب الطرغانى وهو قبطى. وقد نفحه ابن طولون جائزة قدرها عشرة آلاف دينار

(٣) انظر ص٤٧ فى هذا الكتاب

(٤) انظر ص ٤٧ فى هذا الكتاب

(٥) موسوعة تاريخ مصر لأحمد حسين ص ٤٤٩ – ٥٠٠

امتداد العصـــر العباســـى

٢٩٢ـ٣٢٣ هـ / ٩٠٥ـ ٩٣٥ م

امتدت سـيطرة الخلفاء العباسـيين مرة أخرى، ولـو بدرجات متفاوتة، على مصـر، ويتضح لنا مدى ضعفهـم إذا مـا علمنا أن عددهم أربعة خلال هذه الفـترة، وبعضهم خلع من الخلافة وأعيد إليها أكثر من مرة. وهؤلاء الخلفاء هم :

الخليفة المكتفى بالله – أبو محمد على المكتفى بالله بن المعتضد وتوفى ٢٩٥ هـ/ ٩٠٧م، والخليفة المقتدر أخو المكتفى، الذى خلع من الخلافة وأعيد إليها أكثر من مرة، وقتل سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢ م، والخليفة القاهر بالله، الذى خلع سـنة ٣٢٢هـ / ٩٣٤م، والخليفة الراضى بن المقتدر الذى توفى سـنة ٣٢٩ هـ / ٩٤١م إبان إمارة محمد بن طغج.

***

العصـر الإخشيـــــدى

٣٢٣ـ٣٥٩ هـ / ٩٣٥ـ ٩٦٩م

كان دخول محمد بن طغج إلى مصر سـنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥م بداية عصر جديد. هو العصر الإخشـيدى، ولقب الإخشيد باللغة الفرغانية التى ينتسب إليها أجداد بن طغج يعنى كلمة الملك، وحكم الإخشيد مصر فـى وجود الخليفـة الراضى (ت٣٢٩هـ/ ٩٤١م) وخلافة المتقى بالله الذى خلع سـنة ٣٣٣ هـ /٩٤٤م، وخلافة المسـتكفى بالله الذى خلع سـنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥م، وهكذا كانت الخلافة يتناوبها خلفاء ضعاف، بينما الإخشيد يحكم مصر حتى توفى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م.

وصـارت إمارة مصر إلى القاسـم أنوجور بن الإخشـيد، (أنوجور تفسـيره محمود) الـذى أصبح كافور الإخشـيدى وصيا عليه، وبذلك سـيطر كافور على مجريات الأمور. بل إنه أقام على ابن الاخشـيد أخاه أنوجور على ملك مصر سنة ٣٤٩ هـ/٩٦٠م، وبوفاة على الإخشيد سنة ٣٥٥ هـ /٩٦٦م، أصبح كافور أميرا على مصر بصفة رسمية، حتى توفى سنة٣٥٧ هـ/٩٦٨م وتولى بعده أحمد أبو الفوارس بن على بن الاخشيد إمارة مصر، وفى سـنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩م دخلت جيوش الفاطميين مصـر بقيادة جوهر الصقلى وذلك فى١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ

العصـر الفاطمـــى

٣٥٨ـ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ – ١١٧٢م

دخـل جوهـر الصقلى (ت ٣٨١ هـ/٩٩١ م) مصر، بما أعده سـيده المعز لدين الله الفاطمى من جيوش وإمكانات، سـنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٩ م، وأنشـأ مدينة القاهرة فى نفس العام، وبنى الجامع الأزهر سنة ٣٦١ هـ/ ٩٧٢ م – ووصـل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر سـنة ٣٦٢ هـ/ ٩٧٣م، وبعد وفاته يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول سـنة ٣٦٥ هـ/ ٩٧٦ م، ولى الخلافة بعده ابنه نزار أبو منصور الذى لقب بالعزيز بالله. وكان عهده يتميز بالتسامح الدينى، والاعتماد الكلى فى إدارة البلاد على الوزراء من اليهود أو المسيحيين الذين أسلموا أو الذين ظلوا على دينهم ومن أشهر الوزراء يعقوب بن كلس. وقد أحفظ اعتماد العزيز على اليهود والنصارى الناس فى عهده، ويحفظ لنا التاريخ أن امرأة كتبت إليه تقول:

«بالذى أعز اليهود بمنشه والنصارى بابن نسطورس وأذل المسلمين بك هلا نظرت فى أمرى».

وبوفـاة العزيـز بالله فى رمضان سـنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م، تولى بعده أبو منصـور بن العزيز بالله الملقب بالحاكم. وعلى رغم التناقض الشـديد فى تصرفات الحاكم فى حكمه لمصر، فإن أعظم ماقام به هـو إنشـاء دار الحكمـة سـنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م. وكانت مثـل جامعة عصرية بكل ما تحويه الجامعات الحديثة من علوم. ولعل الحسـن بن الهيثم يعد من أهم الشخصيات العلمية فى عصر الحاكم بأمر الله (انظر ترجمته فى هذا الكتاب). وبقتل الحاكم بأمر الله فى ٤١١ هـ/ ١٠٢٠ م، تولى ابنه الحسـن بن الحاكم الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله الذى توفى فى شعبان سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م، وبويع ابنه أبو تميم معد الملقب بالمستنصر بالله الذى حكم ستين سنة، وهو مالم يسبقه إليه ملك فى الإسلام. توفى سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م، وبويع بالخلافة ابنه أحمد أبو القاسم الملقب بالمستعلى بالله (ت ٤٩٥هـ/ ١١٠١م) وقد قامت الحروب الصليبية فى عهده (٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦م) وتولى بعـده ابنه منصـور أبو على الملقـب بالآمر بأحكام الله، الذى قتلته النزارية الذين تشيعوا لأخيه نزار سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م. وتولى بعده الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد الذى توفى سـنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م وبويع بعـده لابنه أبو منصور إسماعيل ولقب بالظافر بأمر الله الذى قتل سـنة ٥٤٩ هـ/١١٥٤م، وولى بعده ابنه أبو القاسم عيسى الذى لقب بالفائز بنصر الله الذى توفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م وبويع لأبى محمد وهو ابن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ بالله، ويسمى أبو محمد ولقب بالعاضد لدين الله. وكان آخـر الفاطميين العاضد الذى توفى فى العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م. ولقد كانت سمة العصر الفاطمى العناية الكبيرة بالعلم والعلماء كما تمتعت مصر بازدهار اقتصادى باسـتثناء السـنوات التى كان النيل فيها يقتصر عن بلوغ الغاية من الفيضان لسنوات متتالية.

بنو زنكى

٥٦٧ ـ ٥٧٠ هـ / ١١٧١ ـ ١١٧٤ م

فى الفترة بعد وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتقليد صلاح الدين الأيوبى سلطانا على مصر والشام، كان بنو زنكى (السلطان العادل نور الدين زنكى، ت٥٦٩/١١٧٤م) ذوى السلطة الاسمية، فهم الذين أرسلوا الجيش برئاسة أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م، وهو الذى لبى نداء العاضد وبعث بجيش جديد إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧ م.

وكان صلاح الدين مع الجيش، وقد تولى وزارة مصر فى عهد العاضد وبتوطيد سلطانه، أقام صلاح الدين فى مصر، حتى موت نور الدين زنكى، وبدأ عهد جديد باستيلاء صلاح الدين على دمشق، ويوليه الخليفة العباسى سلطانا على مصر والشام سنة ٥٦٠ هـ/ ١١٧٥ م.

***

العصر الأيوبى

٥٧٠ ـ ٦٤٨ هـ / ١١٧٤ ـ ١٢٥٠ م

بدأ العصر الأيوبى بموت نور الدين بن زنكى، وولاية صلاح الدين الأيوبى سلطانا على مصر والشام، وليس هنا مجال ذكر الأعمال الجليلة، التى قام بها السلطان صلاح الدين، ومنها موقعة حطين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) واستعادته لبيت المقدس. وانتهت حياة البطل فى دمشق فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر ٥٨٩هـ/٤ مارس ١١٩٣ م. وقد رأى صلاح الدين انتصاراته وحلم حياته وهو طرد الصليبيين من المدينة المقدسة وإعادة الوحدة إلى الإسلام والمسلمين. ويحكى التاريخ: «وقد مات صلاح الدين ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، ودرهما واحداً ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستاناً ولا قرية مزروعة».

وتولى ابنه العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان سلطانا على مصر، وقد توفى فى المحرم سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م، وتولى بعده ابنه محمد وهو ابن تسع سنين إلا بضعة أشهر ولقب بالملك المنصور، وأدار عمه الملك الأفضل الملك، وخلع المنصور، وتسلطن الملك العادل أخو صلاح الدين، الذى توفى سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م فى الشام.

بويع السلطان الكامل ناصر الدين محمد بالملك على مصر. وفى عهده كانت سنة ٦١٧هـ من أسوأ الأعوام التى مرت على مسلمى ذلك الزمان فحيث الصليبيون يهددون مصر فى الغرب، وقد استولوا على دمياط. كان المغول قد بدأو يطحنونهم من الشرق، وتوفى الكامل فى دمشق فى ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م.

وتولى ابنه السلطان العادل الذى خلعه أخوه الصالح أبو الفتوح نجم الدين أيوب وتولى السلطة فى سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. الذى مات سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، وواصلت شجر الدر حمل الأمر واستدعت الملك المعظم

توران شـاه ابن السـلطان نجم الدين أيوب الذى وصل إلى مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، ولم تزد مدة حكمه على ثلاثة شـهور. وتسلطنت الملكة شـجر الدر عصمة الدين أم خليل على مصر، التى تولت ثمانين يوما حاسمة فى تاريخ مصر، وخلعت نفسـها لصالح عز الدين ايبك بعد أن تزوجها، والذى يعتبر بداية لدولة المماليك البحرية بمصر، الذى تولى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م.

***

المماليك البحرية (التركية)

٦٤٨-٧٨٤ هـ / ١٢٥٠-١٣٨٢ م

سمى المماليك البحرية بهذا الاسـم لأن الملك الصـالح أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠- ١٢٤٩) ابتنى لهم دوراً كبـيرة وقلاعـاً عند الروضة، حيث يتفرع «بحر النيل» فرعين، وحيث يسـمى «البحر الكبير» وليس الصالح أيوب أول من أوجد هذه الطائفة من المماليك. بل إنهـا بدأت عندما كان لدى والده السلطان الكامل طائفة من الأجناد اسمها « البحرية العادلية»[1].

ولقد كانت تلك الطائفة من المماليك حرسـا خاصا للصالح أيوب واسـتعملهم فى دفع الحملة الصليبية التى قدمت مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا [2].

وبانتهاء حكم شجر الدر فى سنة ٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠م، بدأ حكم المماليك، وتولى السلطنة بعدها عزالدين أيبك الجاشنكير التركمانى، وهو أول السلاطين من دولة المماليك البحرية أو التركية ٠

وقد أورد الشرقاوى[3][1] قائمة بسـلاطين الدولة، وهم :

عـز الديـن أيبـك التركمانـى	٦٤٨ هـ/١٢٥٠م
المنصور نور الدين بن عز الدين	٦٥٥ هـ/١٢٥٧م
المظـفر سيف الدين قطز	٦٥٧ هـ/١٢٥٩م
الظاهر بيبرس ركن الدين البندقدارى	٦٥٨ هـ/١٢٦٠م
السعيد ناصر الدين محمد أبو المعالى	٦٧٦ هـ/١٢٧٧م
بركه خان بن الظاهر بيبرس	
العادل بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس	٦٧٨ هـ/١٢٧٩م
(كان عمره ٧ سنوات)	
المنصور سيف الدين قلاوون العلائى الألفى	٦٧٨ هـ/١٢٧٩م
(من مماليك الصالح نجم الدين)	
لذلك عرف بالصالحى النجمى	ت ٦٨٩ هـ

(١) الشرقاوى فى تاريخ الجبرتى ص ١٠٥٥، ودكتور زيادة، مجلة كلية الآداب ٤/١

(٢) نفس المراجع

(٣) الشرقاوى فى تاريخ الجبرتى ص ١٠٦٥، ودكتور زيادة، مجلة كلية الآداب ٤/١

الأشرف خليل صلاح الدين بن قلاوون	٦٨٩ هـ/١٢٩٠م
الناصر محمد بن قلاوون	٦٩٣ هـ/١٢٩٣م
(كان عمره تسع سنوات)	
العادل زين الدين كتبغا العادل	٦٩٤هـ/١٢٩٤م
(أحد مماليك قلاوون)	
المنصور حسام الدين لاجين المنصورى	٦٩٦هـ/١٢٩٦م
(أحد مماليك قلاوون)	
الناصر محمد (ثانية) بن قلاوون	٦٩٨هـ/١٢٩٩م
المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	٧٠٨هـ/١٣٠٩م
(من مماليك قلاوون)	
الناصر محمد (ثالثة) بن قلاوون	٧٠٩ هـ/١٣١٠م
المنصور الرابع سيف الدين أبو بكر	٧٤١ هـ/١٣٤١م
الأشرف علاء الدين كوجك (عمره ٨ سنوات)	٧٤٢هـ/١٣٤٢م
الناصر شهاب الدين أحمد	٧٤٣هـ/١٣٤٢م
الصالح عماد الدين اسماعيل أبو الفدا	٧٤٣ هـ/١٣٤٢م
الكامل سيف الدين شعبان	٧٤٧هـ/١٣٤٥م
المظفر سيف الدين حاجى	٧٤٧هـ/١٣٤٦م
السلطان حسن (أول مرة) ابن الملك الناصر محمدبن قلاوون	٧٤٨هـ/١٣٤٦م
الصالح صلاح الدين صالح	٧٥٢هـ/١٣٥١م
السلطان حسن (ثانيه)	٧٥٥هـ/١٣٥٤م
المنصور صلاح الدين محمدبن المظفر حاجى(عمره ١٤سنة)	٧٦٢هـ/١٣٦١م
الأشرف زين الدين أبو المعالى شعبان بن حسين بن الناصرمحمد	٧٦٤هـ/١٣٦٣م
المنصور علاء الدين على السلطان شعبان	٧٧٨هـ/١٣٧٧م
الصالح زين الدين حاجى	٧٨٣هـ/١٣٨١م

(عمره ١١ سنة) حكم إلى ١٩ رمضان سنة٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م

فكان من تولى السلطنة من ذرية الناصر اثنا عشر، أقاموا فيها ثلاثا وأربعين سنة. مع أن الناصر محمد بن قلاوون أقام بها أربعا وأربعين سنة ومدتهم كلها كانت أهوالا وشدائد.

المماليك البرجية (الشراكسة)

٧٨٤ـ ٩٢٢ هـ / ١٣٨٢ ـ ١٥١٧ م

بدأ قيام طائفة المماليك البرجية أيام السلطان قلاوون، أحد سلاطين المماليك البحرية وأشهرهم (٦٧٨ – ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ – ١٢٩٠م). وبدأت دولة المماليك البرجية – أو الشراكسة بتولى السلطان الظاهر برقوق الشركسى (٧٨٤ – ٨٠١هـ/١٣٨٢ – ١٣٩٨م).

ويتجاوز المؤرخون كثيرا حين يطلقون اسم «المماليك» على سلاطين الشراكسة، فكل من تولى السلطنة بعد برقوق لم يكونوا «مماليك» فى يوم من الأيام[1].

وسلاطين المماليك الشراكسة[2][3][4] هم :

الظاهر برقوق سيف الدين أبو سعيد	٧٨٤هـ / ١٣٨٢ م
(وهو جركسى الجنس)	
الناصر فرج زين الدين أبو العلات	٨٠١هـ / ١٣٩٩ م
(عمره نحو ١٠ سنين)	
المنصورعز الدين عبد العزيز	٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م
(عمره نحوعشر سنين)	
الناصر فرج (ثانية)	٨٠٨هـ / ١٤٠٥ م
المستعين بالله أبو الفضل العباسى بن محمد العباسى	٨١٥هـ / ١٤١٢ م
الشيخ المحمودى (المؤيد شيخ أبو النصر الظاهرى)	٨١٥هـ / ١٤١٢ م
المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ المحمودى	
(عمره دون سنتين)	٨٢٤هـ / ١٤٢١ م
الملك سيف الدين أبو الفتح ططر الظاهرى	٨٢٤هـ / ١٤٢١ م
الأشرف برسباى سيف الدين أبو النصر برسباى الدقماقى	٨٢٥هـ / ١٤٢٢ م
العزيز يوسف جمال الدين بن برسباى (عمره ١٥ سنة)	٨٤١هـ / ١٤٣٨ م
الظاهر جمقمق سيف الدين أبو سعيد	٨٤٢هـ / ١٤٣٨ م
المنصور عثمان فخر الدين (٤٠ يوما)	٨٥٧هـ / ١٤٥٣ م
الأشرف اينال سيف الدين أبو النصر (شركسى)	٨٥٧هـ / ١٤٥٣ م

(١) الشرقاوى فى تاريخ الجبرتى ١٠٥٦

(٢) » » » » ١٠٥٦

(٣) مبارك، الخطط التوفيقية ح ١، ص ١١١ – ١٣٢

(٤) محمد كمال السيد، أسماء ومسميات من مصر القاهرة ٤٩٨ – ٤٩٩

obeikandl.com

المؤيد أحمد شهاب الدين بن اينال	٨٦٥هـ / ١٤٦١ م
الظاهر خوشقدم سيف الدين أبو سعيد	٨٦٥هـ / ١٤٦١ م
الظاهر بلباى سيف الدين أبو النصر المؤيدى الشركسى	٨٧٢هـ / ١٤٦٧ م
الظاهر أبو سعيد تيمور بغا الظاهرى	٨٧٢هـ / ١٤٦٧ م
الأشرف قايتباى سيف الدين أبو النصر	٨٧٢هـ / ١٤٦٨ م
الناصر محمد بن قايتباى (قتل)	٩٠١هـ / ١٤٩٦ م
الظاهر أبوسعيد قنصوه الأشرافى	٩٠٤هـ / ١٤٩٨ م
الأشرف جنبلاط أبو النصر	٩٠٥هـ / ١٥٠٠ م
العادل طومان باى الأشرفى	٩٠٦هـ / ١٥٠٠ م
قانصوه الغورى	٩٠٦ هـ / ١٥٠١م
(قتـل فى معركة مرج دابـق وكانت هزيمة منكرة بمكيدة من خير بك والغزالى)	
طومان باى الثانى	٩٢٢ هـ / ١٥١٦م
(شنقه السلطان سليم الأول على باب زويلة)	

وكانت مصر طوال أيام دولتى المماليك البحرية والشراكسة دولة مستقلة، لا تدفع جزية ولا خراجا لدولة أجنبية، وكان بمصر، أحيانا، خليفة عباسـى، يعيش فى كنف السـلطان المملوكى، فيضفى على حكمه صبغة شرعية، غير أن هذا كان أمرا شكليا لاوزن له من الناحية العملية[1].

***

العصـر العثمانى.. والولاة الأتراك

٩٢٢-١٢٢٠ هـ / ١٥١٧-١٨٠٥ م

عدا السلطان سليم (ت ٩٢٦ هـ / ١٥٢٠م) بجيوشه على الشرق إبان حكم السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م)، فخرج الغورى للقائه عند مرج دابق قرب حلب، ولم يسـتطع السلطان التركى انزال الهزيمة بالجيش المصرى إلا باستغلال الغدر والخيانة عند اثنين من أمراء قانصوه الغورى - هما خير بك (الذى ولى على مصر فيما بعد) والغزالى-وأدى ذلك إلى تمكن السلطان سليم من أرض الشام ومصر.

وتـولى بعـد الغورى، طومان باى الثانى حكم مصر فى ٩٢٢-٩٢٣ هـ / ١٥١٦-١٥١٧م. فوقف لسـليم يصد زحفه، ولكنه تمكن منه بسـلاح الغدر مرة أخرى وسـلم الخونة طومان باى إلى سـليم، فسـجنه، ثم أعدمه على باب زويلة.

(١) محمود الشرقاوى، تاريخ الجبرتى ص ١٠٥٧

وبموت طومان باى واستسلام جيوشه، أصبحت مصر ولاية عثمانية، تؤدى الخراج لعاصمة الإمبراطورية.

وكافأ السلطان سليم، خير بك، فأقامه نائبا عنه فى مصر، أو واليا عليها. فكان أول الولاة أو الباشوات، الذين تولى منهم فى ٢٨٨عاما (بين ١٥١٧و ١٨٠٥م) مائة وأربعة وعشرون واليا، متوسط بقاء الواحد منهم فى الولاية نحو العامين. وكثيرا ما تولى منهم فى العام الواحد وَاليان[1].

وقد أورد الشرقاوى[2] قائمة بأسماء الولاة العثمانيين، ذاكرا أنه بتدارسه للمراجع وجد عدم اتفاق بينها، ولكنه أتى بأرجحها.

وفيما يلى نقدم القائمة التى اعتمدها فى العصر الذى أرخه الجبرتى[3]:

خير بك (ولقب بالباشا)	٩٢٤هـ / ١٥١٧م
مصطفى باشا	٩٣٠هـ /١٥٢٢م
أحمد باشا	٩٣١هـ /١٥٢٣م
قاسم باشا	٩٣٢هـ /١٥٢٤م
إبراهيم باشا	٩٣٣هـ /١٥٢٥م
سليمان باشا الخادم	٩٣٥هـ /١٥٢٧م
داود باشا	٩٤٥هـ /١٥٣٨م
على باشا	٩٥٦هـ /١٥٤٩م
محمد باشا دقادن زاده	٩٦١هـ /١٥٥٤م
اسكندر باشا	٩٦٣هـ /١٥٥٦م
على باشا الخادم	٩٦٩هـ /١٥٦١م
مصطفى باشا الثانى	٩٦٩هـ /١٥٦١م
على باشا الصوفى	٩٧٤هـ /١٥٦٣م
محمود باشا	٩٧١هـ /١٥٦٦م
سنان باشا	٩٧٥هـ /١٥٦٧م
حسين باشا	٩٨١هـ /١٥٧٣م
حسين باشا مسيح	٩٨٨هـ /١٥٨٠م
إبراهيم باشا	٩٩١هـ /١٥٨٣م
سنان باشا الثانى	٩٩٢هـ /١٥٨٤م
عويس باشا	٩٩٣هـ /١٥٨٥م

(١) الشرقاوى، تاريخ الجبرتى ١٠٥٧

(٢) المصدر السابق ، ١٠٥٧

(٣) المصدر السابق ص ١٠٥٧ – ١٠٥٩

أحمد باشا الخادم	١٠٠٠هـ /١٥٩٢م
قورط باشا (أوكرد)	١٠٠٤هـ /١٥٩٥م
محمد باشا الشريف	١٠٠٥هـ /١٥٩٦م
خضر باشا	١٠٠٧هـ /١٥٩٨م
على باشا السلحدار	١٠١٠هـ /١٦٠١م
إبراهيم باشا	١٠١٣هـ /١٦٠٤م
محمد باشا الكورجى (الخادم)	١٠١٤هـ /١٦٠٥م
حسن باشا	١٠١٤هـ /١٦٠٥م
محمد باشا	١٠١٤هـ /١٦٠٥م
محمد باشا الصوفى	١٠١٦هـ /١٦٠٧م
أحمد باشا الدفتردار	١٠٢١هـ /١٦١٢م
مصطفى باشا لفقلى	١٠٢٢هـ /١٦١٣م
جعفر باشا	١٠٢٧هـ /١٦١٨م
مصطفى باشا	١٠٢٨هـ /١٦١٩م
محمد باشا البستانجى	١٠٣١هـ /١٦٢٢م
إبراهيم باشا السلحدار	١٠٣١هـ /١٦٢٢م
مصطفى باشا (ثانية)	١٠٣٢هـ /١٦٢٣م
بيرام باشا	١٠٣٦هـ /١٦٢٧م
محمد باشا	١٠٣٨هـ /١٦٢٩م
موسى باشا	١٠٣٩هـ / ١٦٣٠م
حسن بك (مؤقتا)	١٠٤٠هـ / ١٦٣١م
خليل باشا البستانجى	١٠٤٠هـ / ١٦٣١م
أحمد باشا الكورجى	١٠٤٢هـ / ١٦٣٣م
حسين باشا الدالى	١٠٤٥هـ / ١٦٣٦م
محمد باشا أحمد	١٠٤٧هـ /١٦٣٨م
مصطفى باشا البستانجى	١٠٤٨هـ /١٦٣٩م
مقصود باشا الوزير	١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م
سفيان باشا (مؤقتا)	١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م
أيوب باشا	١٠٥٥هـ / ١٦٤٥م
محمد باشا حيدر	١٠٥٧هـ / ١٦٤٧م
أحمد باشا الطرخونجى	١٠٥٨هـ /١٦٤٨م
عبد الرحمن باشا الطويشى	١٠٦١هـ / ١٦٥١م

obeikandl.com

محمد باشا السلحدار	١٠٦٢هـ / ١٦٥٢م
عمر باشا	١٠٦٦هـ / ١٦٥٦م
أحمد باشا	١٠٧٧هـ / ١٦٦٦م
إبراهيم باشا	١٠٧٨هـ / ١٦٦٧م
حسين باشا	١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م
عثمان باشا	١٠٩١هـ / ١٦٨٠م
حسين باشا السلحدار	١١٠٠هـ / ١٦٨٨م
أحمد باشا	١١٠٢هـ / ١٦٩٠م
على باشا قلج	١١٠٣هـ / ١٦٩١م
إسماعيل باشا	١١٠٨هـ / ١٦٩٦م
حسين باشا البشناقى	١١١٠هـ / ١٦٩٨م
أحمد قره محمد باشا	١١١١هـ / ١٦٩٩م
محمد رامى باشا	١١١٦هـ / ١٧٠٤م
على مسلم باشا	١١١٨هـ / ١٧٠٦م
حسين باشا كتخدا	١١١٩هـ / ١٧٠٧م
إبراهيم باشا القبودان	١١٢٠هـ / ١٧٠٩م
خليل باشا الكوسج	١١٢١هـ / ١٧١٠م
ولى باشا	١١٢٢هـ / ١٧١١م
عابدين باشا	١١٢٧هـ / ١٧١٥م
على باشا الأزميرلى	١١٢٩هـ / ١٧١٧م
رجب باشا	١١٣٠هـ / ١٧١٨م
محمد باشا النشانجى[1]	١١٣٢هـ /١٧٢٠م
على باشا	١١٣٧هـ /١٧٢٥م
(المدة شهران خلال مدة حكم محمد باشا)	
باكير باشا	١١٤٢هـ / ١٧٢٩م
عبد الله باشا الكبورلى	١١٤٢هـ / ١٧٢٩م
محمد باشا السلحدار	١١٤٥هـ / ١٧٣٢م
عثمان باشا الحلبى	١١٤٦هـ / ١٧٣٣م
باكير باشا (ثانية)	١١٤٨هـ / ١٧٣٥م
مصطفى باشا	١١٤٩هـ / ١٧٣٦م

(١) البستانجى فى الخطط التوفيقية ، جـ ١٥٢/١

obeikandl.com

سليمان باشا بن العظيم	١١٥٢هـ / ١٧٣٩م
على باشا حكيم أوغلى	١١٥٣هـ / ١٧٤٠م
يحى باشا اليدكش	١١٥٦هـ / ١٧٤٣م
محمد راغب باشا	١١٥٨هـ / ١٧٤٥م
أحمد باشا كور وزير	١١٦١هـ / ١٧٤٨م
شريف عبد الله باشا	١١٦٣هـ / ١٧٥٠م
محمد أمين باشا	١١٦٦هـ / ١٧٥٣م
بلطجى مصطفى باشا	١١٦٦هـ / ١٧٥٣م
على باشا حكيم أوغلى (ثانيا)	١١٦٩هـ / ١٧٥٦م
محمد سعيد باشا	١١٧١هـ / ١٧٥٨م
مصطفى باشا	١١٧٢هـ / ١٧٥٩م
أحمد كامل باشا	١١٧٤هـ / ١٧٦١م
باكير باشا	١١٧٦هـ / ١٧٦٢م
حسن باشا	١١٧٦هـ / ١٧٦٢م
حمزة باشا	١١٨٠هـ / ١٧٦٥م
محمد راقم باشا	١١٨٢هـ /١٧٦٧م
محمد باشا الأورفلى	١١٨٣هـ / ١٧٦٨م
أحمد باشا	١١٨٥هـ / ١٧٧٠م
قرة خليل أغا باشا	١١٨٥هـ / ١٧٧٠م
مصطفى باشا النابلسى	١١٨٩هـ / ١٧٧٤م
إبراهيم باشا عرب كيرلى	١١٩٠هـ / ١٧٧٥م
محمد باشا عزت	١١٩١هـ / ١٧٧٦م
إسماعيل باشا	١١٩٣هـ / ١٧٧٨م
إبراهيم باشا	١١٩٤هـ /١٧٧٩م
(مات قبل أن يتولى فظل إسماعيل باشا فى الولاية)	
محمد باشا مالك	١١٩٦هـ / ١٧٨١م
على باشا القصاب	١١٩٧هـ / ١٧٨٢م
محمد باشا السلحدار	١١٩٨هـ / ١٧٨٣م
محمد باشا يكن	١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م
عابدين باشا الشريف	١٢٠٢هـ / ١٧٨٧م
إسماعيل باشا التونسى	١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م
محمد باشا عزت	١٢٠٦هـ / ١٧٩١م

oberkandl.com

صالح باشا القيصرلى	١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م
أبو بكر باشا الطرابلسى	١٢١١هـ / ١٧٩٦م
خسرو باشا	١٢١٦هـ / ١٨٠١م
طاهر باشا	١٢١٧هـ / ١٨٠٢م
أحمد باشا	١٢١٧هـ /١٨٠٢م
على باشا الجزايرلى	١٢١٨هـ /١٨٠٣م
خورشيد باشا	١٢١٩هـ /١٨٠٤م
محمد على باشا	١٢٢٠هـ /١٨٠٥م

ومنذ ذلك الوقت حتى ١٩٥٢ م حكمت أسرة محمد على باشا مصر، بعد أن تخلص من المماليك ودبر لهم مذبحة القلعة، التى أفنى فيها منهم من أفنى، وشرد الباقين فى البلاد، فلم تقم لهم من بعد ذلك اليوم قائمة. حيث كان للمماليك نفوذ تحرص تركيا على بقائه إلى جانب نفوذ الولاة.

ولاشك أن بداية حكم محمد على باشا تعد بداية حقبة جديدة فى حكم مصر، ووضعها السياسى والاقتصادى والمناشط العلمية ومنها الطب وتدريسه وتعليمه.

***

الاحتلال الفرنسى لمصر

١٢١٣ ـ ١٢١٦ هـ /١٧٩٨ ـ ١٨٠١م

على رغم قصر هذه الفترة إلا أن آثارها السياسية والاجتماعية والعلمية كانت عظيمة وعميقة. ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن هذه الآثار مازلنا نلمس بعضها حتى الآن، وبغض النظر عن الآثار السيئة لأى احتلال، وما يتبع ذلك، فإن هذا الكتاب ليس مجالا لمناقشة هذه المسائل، ولكننا سنقصر حديثنا على ما يهم موضوع الكتاب، أى النواحى الطبية علما وعملا.

ولاشك أن أعظم الأعمال التى قام بها نابليون فى هذه الفترة، هو إنشاؤه للمجمع العلمى المصرى من العلماء الفرنسيين الذين اصطحبهم معه. فقد أصدر نابليون أمره فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م لإنشاء المجمع العلمى المصرى، ولايزال هذا المجمع قائما بذاته بنفس الاسم حتى الآن ويتشرف المؤلف الأول لهذا الكتاب بعضوية هذا المجمع العلمى. وكان الغرض منه :

- تقدم ونشر العلوم والمعارف فى الديار المصرية.
- بحث ودراسة المباحث الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر.
- استشارته فى المسائل المختلفة التى ترى الحكومة عرضها عليه.

وقـد كان فى فروع وشـعب المجمع مايهتم بالطـب والجراحة وغير ذلك من العلـوم. أما عن التدابير الصحيـة التـى قام بها الفرنسـيون، فقد كان الخوف من انتشـار الطاعون يؤرق نابليـون، وقد عنى منذ نزوله الاسـكندرية بإنشـاء المحاجر والمعازل الصحية (كورنتينات). وعند وصوله إلى القاهرة أقام محجرا صحيا فى بولاق وأنشـأ مستشفيات عسكرية. كما أمر بوجوب نشر المفروشات على أسطح المنازل لتهويتها وتعريضها لأشعة الشمس.

ولاشـك أن من الآثـار الخالدة، مجموعة الأبحاث التى تتصل بتاريخ مصـر وجغرافيتها وجيولوجيتها وثروتها واقتصادياتها وإمكانياتها، والتى طبعت فى كتاب «وصف مصر» الذى سجل بالرسوم كل ماكانت عليه أحوال مصر فى هذا العهد ويعد أعظم دائرة معارف وضعت لمصر حتى تاريخ كتابته.

وقد قدمت الجمعية العلمية الفرنسية أول إحصاء تقريبى لعددّ سكان مصر عام ١٨٠٠م، وقدر هذا العدد بـ ٢,٤٦٠,٢٠٠ نسمة.

***

أسرة محمد على باشا
حتى خلع فاروق وانتهاء الملكية

١٢٢٠ ـ ١٣٧١هـ / ١٨٠٥ ـ ١٩٥٢م

لا مـراء فى أن هذه الحقبة شـهدت تطورا كبيرا فـى الطب والعلوم الطبية، وبدأ ذلك منذ عهد محمد على حتى نهاية حكم أسرته. وقبل أن نبين هذه الجوانب نسرد فيما يلى أسماء الحكام والسلاطين والملوك من أسرة محمد على[1]:

– محمد على باشـا حكم مصر فى ١٢ مايو ١٨٠٥م، واسـتمر حتى اعتزل لضعف صحته وشيخوخته سنة ١٨٤٧، وكان يدبر الأمور بعد ذلك حفيده عباس حلمى الأول حتى صدر القرار بولاية إبراهيم باشا سنة ١٨٤٨م. الذى توفى فى نفس السنة، وتوفى محمد على سنة ١٨٤٩م.

–إبراهيم باشا بن محمد على (ت ١٨٤٨م).

–عباس حلمى الأول بن طوسون بن محمدعلى. قتل فى يولية سنة ١٨٥٤م.

–سعيد باشا محمد على تولى فى يوليه ١٨٥٤ إلى يناير ١٨٦٣ م.

–إسماعيل باشـا بن إبراهيم بن محمد على من يناير سـنة ١٨٦٣ إلى يونية سنة ١٨٧٩م، وخلع وتوفى فى استانبول سنة ١٨٩٥ م.

–محمد توفيق بن إسماعيل حكم من ١٨٧٩ إلى ١٨٩٢م.

(١) محمد كمال السيد محمد، أسماء ومسميات من مصر القاهرة ٥٠٦

-عباس حلمى الثانى بن محمد توفيق حتى ديسمبر ١٩١٤ وخلع.

-حسين كامل بن إسماعيل من ديسمبر سنة ١٩١٤ حتى ٩ أكتوبر سنة ١٩١٧ م.

-أحمد فؤاد بن إسماعيل (السلطان ثم الملك) حكم من ١٠ أكتوبر ١٩١٧ لغاية ٢٨ إبريل سنة ١٩٣٥ م.

-فاروق حكم حتى ٢٣ يولية ١٩٥٢، وخلع وتنازل لابنه أحمد فؤاد الثانى، ثم ألغيت الملكية سنة ١٩٥٣م.

فى سنة ١٢٤٣هـ / ١٨٢٧م، أنشئت مدرسة الطب بناء على اقتراح تقدم به الدكتور كلوت بك (١٧٩٣ - ١٨٦٨ م) الفرنسى على أن يلحق بمستشفى أبو زعبل التى كانت تضم ٧٢٠ سريرا. وقد اختير للمدرسة مائة طالب. وقد رتب لكل طالب مائة قرش شهريا خلاف الطعام من الأزهر، لتبدأ بهم المدرسة وجىء من أوربا بطائفة من الأساتذة لتدريس التشريح والجراحة والأمراض الباطنية وعلم الصحة والصيدلة والطب الشرعى والطبيعة والكيمياء وقد ألحق بالمدرسة مدرسة أخرى خاصة بالصيدلة، ألحقت بها حديقة لزرع العقاقير والنباتات الطبية المحلية والمجلوبة من الخارج. كما ألحق بالمدرسة، مدرسة خاصة بالقابلات والولادة.

وقد كان عهد إسماعيل باشا متميزاً بازدهار التعليم بكل أنواعه على رغم ما شاب هذا العهد من قصور ومشكلات.

وقد أرسلت البعثات وعاد الأطباء وازدهرت المدرسة الطبية وأغلقت وفتحت، وهكذا مرت عليها متغيرات عديدة، حتى جاء الوقت وأنشئت الجامعة المصرية، وأسست كلية الطب بوضعها الحديث. وسنفرد لهذا التاريخ بابا خاصا به.

* * *

نهضة الطب والتعليم الطبى فى عصر محمد على

لاحظنا أن العلوم والفنون قد تدهورت إلى درجة ملحوظة فى أواخر عهد العثمانيين، ودخل الطب والطبابة عديد من أمور الشعوذة والدجل، وبدا وكأن مصر فقدت الصلة بماضيها الوضاء. ويتبين لنا تدهور الطب فيما كتبه لان Lane سنة ١٨٣٥ فى كتابه «أخلاق وعادات المصريين المحدثين» فيقول عن المصريين المشتغلين بالطب فى ذلك الوقت: « إن المصريين المشتغلين بالطب والجراحة معظمهم جهال وأغلبهم من الحلاقين ولا يعرفون الأسس العلمية لما يقومون به من تطبيب، ويعتمد كثير من المرضى على الشعوذة».

ويلاحظ خلال السنوات الثلاثة التى احتلت جيوش الحملة الفرنسية مصر فيها، أنه قد تمكن العديد من العلماء الفرنسيين من إجراء الاستكشافات العلمية والدراسات عن مصر. وقد شكلت لجنة من: دسجونت، داور، كافاريللى، برتولت، مونيه ولارى، لتعد خطة لتنظيم مستشفى مدنى يضم أربعمائة سرير للمرضى فى القاهرة. وفى تقريرهم اقترحوا إلحاق مدرسة طبية بالمستشفى حيث يتعلم الطلاب المصريون باللغة

الفرنسية. ولعل انتشار الطاعون فى القاهرة بالإضافة إلى عدد من الصعوبات قد حال دون تنفيذ المشروع، ولكن تم افتتاح مستشفى به ٣٠٠ سرير فى منطقة الأزبكية.

ولاجدال فى أن بداية النهضة الحقيقية فى العصر الحديث كان فى عهد محمد على، فقد بدأ فى إرسال البعثات العلمية إلى دول أوروبا مثل فرنسا وإيطاليا لدراسة العلوم المختلفة. وكان بين من أرسلهم عثمان أفندى نور الدين (أصبح بك ثم باشا بعد ذلك) الذى قضى بضع سنوات فى الدراسة بفرنسا وعاد إلى مصر ليؤسس مدرسة ثكنات الخانكة فى ١٨٢١. وقد تعرف أثناء إقامته فى فرنسا على السيد جومار، عضو المعهد الفرنسى وعالم مشهور ومن كبار المهندسين فى الجيش الفرنسى خلال الحملة الفرنسية على مصر.

وقد وجه السيد جومار نظر عثمان أفندى إلى أهمية إرسال بعثات إلى أوروبا. وبعد عودة عثمان أفندى إلى مصر أقنع محمد على بإرسال بعثة فى ١٨٢٦م تتكون من ٤٤ دارسا من المصريين والأتراك والأرمن. وقد رعى السيد جومار أفراد البعثة، التى درس اثنان فيها الطب والجراحة، ودرس أحد عشر الإدارة العسكرية ودرس الباقون موضوعات متنوعة مثل الزراعة والمياه والتعدين والعمارة .... الخ.

وفى الفترة من ١٨٢٧إلى ١٨٣٣ أُرسل ستون آخرون فى بعثات، معظمهم من أبناء الفلاحين، ودرس اثنا عشر منهم الطب. وقد بقى السيد جومار مديراً للبعثات حتى وفاته فى سنة ١٨٦٢م.

ومن المعروف أن إنشاء جيش قوى كان من أهم طموحات محمد على، وبدأ فى تجهيزه على الطريقة الفرنسية، واستدعى له الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى). وكان تعداد الجيش ١٥٠٠٠٠جندى فى أماكن متفرقة. ولقد ظهرت الحاجة الملحة للرعاية الطبية عندما اجتاح القاهرة وباء الطاعون فى ١٨٢٤م. وفى٢٢ ديسمبر من عام ١٨٢٤م وقع أنطونى برتامى كلوت (المعروف بعد ذلك بأسم كلوت بك) عقداً لمدة خمس سنوات ليخدم فى الجيش بمرتب قدره ٨٠٠٠ فرنك فى السنة، علاوة على بزَّتين من حُلَل المماليك وبَدَل طعام مماثل لكولونيل فى الجيش. وعند وصوله إلى مصر، وجد كلوت بك أن الحالة الصحية فى الجيش متدهورة، والأوبئة تجتاح الموجودين بالخانكة، وعددهم ٢٥٠٠٠، وقد كانت الوفيات الناتجة عن الجدرى فقط فى مصر تصل إلى ستة الآف حالة سنوياً.

وخلال السنتين الأوليين (١٨٢٥ – ١٨٢٧م) شغل كلوت بك نفسه بتنظيم الخدمات الطبية، وتبين له الضرورة الماسة لتوظيف عدد من الأطباء ليتلاءم جيش قوامه ١٥٠٠٠٠ جندى، ليقوموا بدورهم فى مقاومة الأوبئة مثل الكوليرا والجدرى. وكان من الصعب تعيين أطباء أجانب نظراً لحاجز اللغة.

وقد أسس كلوت بك مستشفى فى أبو زعبل سعتها ٨٠٠ – ١٠٠٠ سرير. وعين بها حوالى ١٥٠ ضابطا أوروبيا وصيادلة ومساعدين معظمهم من إيطاليا وفرنسا. والجدير بالذكر أنه أنشأ حديقة نباتية فى المستشفى، وكانت ذات فائدة جمة لطلاب الطب فيما بعد.

وعلى رغم أن إنشاء هذا المستشفى قد سد حاجة الجيش من الخدمات الصحية، إلا أن الحالة الصحية فى مصر كانت فى حاجة إلى مزيد من الرعاية. فمثلا فى سنة ١٨٣١ م بلغ عدد الوفيات ٣٠٠٠٠ من وباء الكوليرا فى القاهرة.

وقـد فكر كلوت بك فى تمصير الطب، وإنشـاء كوادر طبية مصريـة، تتعلم الطب وفروعه على أحدث الطرق المتاحة وقتئذ وتقدم باقتراح إلى وزير الجهادية الذى رفعه بدوره إلى محمد على باشـا. ويتمثل هذا الاقتراح فيما يلى:

١- أن يلحق بالمستشـفى المركزى(فى أبو زعبل) خمسـمائة من الشـباب العرب ذوى المعرفة باللغة العربية والحساب.

٢- يقوم هؤلاء الشباب بدراسة اللغة الفرنسية.

٣- يقوم الطلاب بدراسـة المواد الآتية : الفيزياء-الكيمياء-النبات- التشريح- الفسيولوجى- الصحة العامة - المادة الطبية (العقاقير) - علم السموم - علم الأمراض الداخلى والخارجى - الصيدلة. وتترجم المحاضـرات للطلاب بواسـطة مترجمين أكفاء. وحتى تضمن الحكومة كفـاءة المتخرجين، فإنه اقـترح أن يشـكل ناظـر الجهادية (وزير الدفـاع) لجنة تضم أعضاء المجلس الصحى لتشـرف على امتحانات هؤلاء الطلاب.

ويُمنـح الدارسـون بعد خمس سـنوات من الدراسـة درجات نائب ونائب مسـاعد ونائـب ويلحقون بالمستشفيات المختلفة.

***

تأسيس المدرسة الطبية
فى أبو زعبل

على رغم أن اقتراح كلوت بك بإنشاء المدرسة الطبية لم يرق للكثيرين، وأثيرت فى وجهه الاعتراضات فإن محمد على باشـا أصدر قراره سـنة ١٨٢٧م بافتتاح المدرسـة وعين كلوت بك مديراً لها. واختار كلوت بك الأسـاتذة بكل دقة وعناية، وكان معظمهم من فرنسـا وأسبانيا وإيطاليا وبافاريا. وكانت الكتب المقررة بالفرنسية.

ومن بين الأسـاتذة: أوبـرت وامانجارد وكروفينيو مـن باريس، وبيرون وبارتلمى وبرنارد وجايسـتان وفيجارى من إيطاليا، وبروز وفيشر من بافاريا. وكان دفينيو مديرا ورئيسا للأطباء فى مستشفى أبوزعبل.

وقد جابهت المدرسة مشكلتين رئيستين هما: لغة التدريس وممارسة التشريح على الجسم البشرى.

وفى سبيل حل مشكلة لغة التدريس، شكلت لجنة تقوم بترجمة كتب الطب إلى اللغة العربية. وقد تم ترجمة ٥٢ كتابا. والطريف فى الأمر أنه لم يكن بين المصريين من يتقن الترجمة من الفرنسـية إلى العربية إلا سـورى يدعى عنحورى يتقن الإيطالية، فكانت تترجم له الكتب من الفرنسـية إلى الإيطالية، ثم يقوم بترجمتها إلى العربية، وكان بعض الشيوخ من الأزهر الشريف يقومون بمراجعة وتصحيح الترجمة التى قام

بها عنحورى من الإيطالية إلى العربية. وفى مقدمة هؤلاء الشيوخ كان الشيخ محمد الهراوى، الذى يمكن اعتباره أحد مؤسسى المدرسة الطبية. وكان الدارسون الأوائل يختارون من الأزهر، ومعظمهم من شباب قرية زاوية البقلى بالمنوفية.

وعلى رغم النجاح فى هذه الطريقة إلا إنها كانت صعبة، وإن الطلاب لن يتمكنوا من دراسة الكتب الطبية بلغاتها الأصلية، وبذلك جعل تدريس اللغة الفرنسية إجباريا. وبنى مدرسة صغيرة بجوار المستشفى كان المسيو يوسللى يقوم بتدريس اللغة الفرنسية للطلاب فيها.

والمشكلة الثانية؛ ولاشك أنها كانت الأصعب، هى رفض الشيوخ وعلماء الأزهر القيام بتشريح جثة الإنسان. ولكن تطور الأمر إلى أن وصل الحال أن الطلاب كانوا يأخذون معهم أجزاء من جسم الإنسان إلى منازلهم لدراستها. وعلى رغم هذا فقد كانت غرف التشريح محاطة بالحرس الذين لم يكونوا يعلمون ما يجرى فى هذه القاعات. ولكن الأمر لم يسر بسهولة فقد اعتدى أحد الطلاب على كلوت بك ذات مرة أثناء درس التشريح، ولم يصب بسوء.

وفى خمس سنوات بعد تأسيس المدرسة، حصل ما لا يقل عن ٤٢٠ طالبا على درجاتهم، وقاموا بأعمالهم فى المستشفيات مما سد حاجة الجيش. وكانت لجان الامتحانات تعقد أثناء احتفالات علنية.

وكما هو العهد، فلكل عظيم حساده والحاقدين عليه، فقد انتقد رئيس القسم البيطرى السيد هامونت سير العمل فى المدرسة: وهو مواطن فرنسى مثل كلوت بك، بل إنه زعم أن كلوت بك يسلم أسئلة الامتحانات للطلاب قبل أدائها بثلاثة شهور وليفند هذا الزعم ويرد عليه، اقترح كلوت بك أن يأخذ بعثة من ١٢ طالباً إلى فرنسا. ووافق على ذلك، ووصل كلوت بك و١٢ من تلاميذه إلى باريس يوم ١٨ نوفمبر ١٨٣٢ م. يلبسون عمائمهم وقفاطينهم. وقابل كلوت بك السيد جومار وأخبره بمهمته، وأن الطلاب ينبغى أن يؤدوا امتحاناً قبل إلحاقهم بالبعثة. وتشكلت لجنة الامتحان من أساتذة فرنسا العظام. وترجمت إجابات الطلاب إلى الفرنسية، والتى لاقت استحسانا شديداً. وتقديرا لهم ولأستاذهم كلوت بك. وبقى طلاب هذه الإرسالية فى فرنسا ليتموا علمهم. وهم على النحو الآتى:

أحمد الرشيدى	حسن الرشيدى	محمد منصور
إبراهيم النبراوى	حسين الهيباوى	عيسوى النحراوى
مصطفى السبكى	محمد الشباسى	محمد السكرى
محمد الشافعى	أحمد بخيت	محمد على البقلى

وفى عام ١٨٣٨م عاد بعض هؤلاء المبتعثين من أوروبا. وبعودتهم اقترح كلوت بك تعيينهم مساعدين فى مدرسة أبو زعبل على النحو التالى: أحمد الرشيدى (الفيزياء والكيمياء)، إبراهيم النبراوى (الجراحة)، عيسوى النحراوى (طب)، أحمد بخيت (بيولوجى)، حسين الهيباوى (تشريح)، على هيبة (توليد وفسيولوجى) والملاحظ أن اسم الأخير لم يظهر ضمن طلاب البعثة.

كما أضاف كلوت بك إلى اقتراحه الذى نفذ، وهو إغلاق مدرسة المارستان، التى كانت تضم فى ذلك الوقت ٣٧ تلميذا يعلمهم الشيخ محمد الهراوى عدداً من الموضوعات فى التشريح والطب والصحة العامة وقواعد اللغة والنحو.

ولعل أول نظام وضع لوظيفة معيد كان هو ما اقترحه كلوت بك بأن يشترك هؤلاء المساعدون فى تدريس الجانب العملى ويقوموا بإلقاء محاضرات بالعربية، كما يكلفون بترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية.

وفى عام ١٨٤٠م عاد آخرون من باريس منهم محمد الشافعى ومحمد الشباسى ومحمدالسكرى ومصطفى السبكى ومحمد البقلى بعد انتهائهم بنجاح من دراساتهم. وعين كل منهم بمرتب عشرة جنيهات شهرياً.

***

انتقال المدرسة الطبية
إلى قصر العينى

لقد كان من الطبيعى أن تنشأ المدرسة الطبية لتلحق بمستشفى أبو زعبل حيث كان أكبر مستشفى فى القاهرة، وكان مكتظا بالمرضى من الجنود فى الثكنات المجاورة له. وكان فى بعده عن القاهرة فرصة لقيام هيئة التدريس بإجراء التشريح بعيداً عن المعارضين لذلك. ولكن انتقال الجنود للحرب فى الشام أدى إلى تفريغ المستشفى من المرضى. وبذلك فإنه فى عام ١٨٣٧م انتقلت المدرسة والمستشفى إلى موقعها فى قصر العينى وهو قصر أنشأه سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦ م شهاب الدين أحمد بن عبد الرحيم بن قاضى القضاة الحنفية بدر الدين محمود العينى. وذلك إبان حكم السلطان خوشقدم (ت ٨٧٢ هـ /١٤٦٧م) وقد خرج أحمد العينى من مصر إثر فتن ومشكلات وتوفى فى المدينة المنورة وأصبح قصره من أملاك الدولة، وكان الوالى العثمانى والبكوات المماليك فى عهد العثمانيين الذين استولوا على مصر سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م يستعملون قصر العينى أحيانا للنزهة. وأحيانا داراً للضيافة، وأحيانا مكانا يقطنه الأمراء الذين يعزلهم الوالى العثمانى. وقد كان قصر العينى مقرا للمدرسة الحربية سنة ١٨٢٥ م.

وكان لانتقال المدرسة الطبية إلى قصر العينى مزايا عديدة، حيث كان المستشفى قريبا من الثكنات وكذلك سمح بعلاج المدنيين وأتيحت الفرصة لطلاب العلم فى الأزهر الشريف القادمين من الدول المختلفة بمتابعة دروس الطب، وقد حملوا ثمار المعرفة إلى بلدانهم. وكانت الخسارة الوحيدة هو ترك الحديقة النباتية التى كانت ملحقة بالمدرسة فى أبو زعبل.

وفى ذلك الوقت كان الطلاب وعددهم خمسمائة يدرسون مدة خمس سنوات، وكانوا يلبسون زيا عسكريا، ويقدم لهم الطعام والكساء والإقامة من الحكومة، كما كان كل طالب يتقاضى مبلغ أربعين قرشا شهريا مصروف جيب.

وفى عام ١٨٣٨م افتتحت مدرسة توليد للقابلات، وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن محمد على فى سنة ١٨٣١ م أمر بإلحاق شخصين من أغوات الحريم من ذوى الدراية بالقراءة والكتابة بمدرسة الطب. بمعرفة كلوت بك، لتعليمهما الطب والجراحة، وهذا لخدمة سيدات العائلة الحاكمة، وفى نفس الأمر أن يشترى عشر جوار سودانيات صغيرات السن منتخبات بواسطة كلوت بك وإعطاؤهن إليه، لتلقى صناعة الولادة والطب والجراحة. وفتحت لهن مدرسة الولادة، وألحقت بمدرسة الطب البشرى بأبى زعبل.

وفى عام ١٨٤٩م كان بالمدرسة ١٢٥ طالباً للطب و٢٥ طالباً للصيدلة، وامتدت فترة الدراسة إلى ست سنوات. وجدير بالذكر أن عدد الطلاب الذين حصلوا على درجاتهم خلال ١٨عاما مدة حكم محمد على كان ١٥٠٠ طالب، وفى هذه الفترة تم ترجمة ٥٢ كتابا فى الطب من الفرنسية إلى العربية، وطبعت فى مطبعة بولاق، بمعدل ألف نسخة من كل كتاب، بل إن نسخا من هذه الكتب أرسلت إلى القسطنطينية والجزائر وتونس والمغرب وسورياً وإيران.

وقد يكون من الطريف أن نذكر أن أول وصول البنج (المخدر) من أمريكا واستعماله فى العمليات الجراحية فى مصر كان سنة ١٨٤٦ م، فقد استعمله كلوت بك فى عمليتين جراحيتين. إحداهما حالة سرطان فى العين. كما استعمله المسيو فرانق (فرانك) حكيم إبراهيم باشا فى حالة بتر رجل. وكتب بهذا تقريرا محمد أفندى الشافعى البكباشى وكيل المدرسة إلى ديوان المدارس.

وكان حكم عباس حلمى الأول نكبة على مصر، وتضييعا لما بذله محمد على فى القيام بمرافقها، خاصة التعليم فقد ألغى المدارس، وتقلصت نفقات التعليم من ٨٨٠٠ جنيه تقريبًا فى آخر عهد محمد على إلى ٥٠٠٠ جنيه فى عهد عباس الأول.

وعلى رغم المنجزات العظيمة التى تمت فى مدرسة الطب ومنها مثلا اكتشاف ديدان البلهارسيا سنة ١٨٥١ على يد تيودور بلهارس الألمانى أحد أساتذة المدرسة وقد توفى بلهارس ودفن فى مصر، وأنشئ حديثا معهد علمى يحمل اسمه تقديرا له. كما قام ولهلم جريسنجر (١٨١٧–١٨٦٨) وهو ألمانى قام بنشر اكتشافات هامة عن التيفود والأنكلستوما وعلاقاتهما بالأنيميا، وكان الخديوى عباس الأول قد دعا جريسنجر وعينه مديرا للصحة بالقاهرة وكان معه تلميذه بلهارس. فقد أغلق عباس الأول المدرسة الطبية، كما أغلق غيرها من المدارس.

وبموت عباس الأول فى ١٨٥٤ م وتولى عمه سعيد باشا بن محمد على الحكم، فإن الأخير فى سنة ١٨٥٦ م أصدر قرارا بإنشاء مجلس خصوصى للطب، وبعده صدر الأمر بإنشاء مدرسة الطب فى قصر العينى ملحقة باسبتالية قصر العينى، لتعليم الطب والجراحة والعلوم الطبية والأجزائية (الصيدلة). وتقرر فتحها فى أول سبتمبر ١٨٥٦ م (غرة المحرم سنة ١٢٧٣ هـ). وأن يكون تلاميذها ممن يحسنون القراءة والكتابة،

ويعرفون القواعد الأصلية للحساب. ويكون سنهم نحو ١٥ سنة. وإذا لم يوجد من يعرف الحساب فيرتب خوجة (مدرس) حساب ومبادئ هندسة. وكذلك خوجة للغة الفرنسية. وهذا مؤقتا لحين تخرج تلاميذ من المدرسة التجهيزية بالقلعة لتدريس الحساب والفرنسية. وكان الأمر بإنشاء المدرسة التجهيزية قد صدر قبل ذلك بشهر تقريباً.

وتقرر أن يكون عدد تلاميذ مدرسة الطب بقصر العينى ٨٠، منهم ٦٠ لتعلم علوم الطب والجراحة ليكونوا حكماء، و٢٠ لتعليم العلوم الطبية والأجزاء ليكونوا أجزائية (صيادلة).

وتوضح بالأمر المذكور كيفية معاملة التلاميذ من حيث الأكسية والمأكولات والإقامة والفسحة (الإجازة) والامتحان والخروج (أى التخرج) عند انتهاء التعليم بالتدرج على مدى خمس سنين. وربط ماهية كل تلميذ ٧٥ قرشاً شهرياً، قابلة للزيادة والترقى. وسمح لمن يرغب من الأهالى فى الانضمام إلى المدرسة زيادة عن العدد المذكور ويعاملون نفس المعاملة[1]. وفى أكتوبر سنة ١٨٥٦م صدر أمر باعتماد لائحة مقدمة من كلوت بك وأقرها مجلس الطب الخصوصى من ٣٩ بنداً عن ترتيب إدارة مدرسة تعليم الطب وضبطها وربطها.

وحتى عام ١٩٠٠م توالى على إدارة المدرسة والمستشفى عديد من الأطباء المصريين والأجانب ذوى الجنسيات المختلفة، بدءاً بكلوت بك وانتهاء بإبراهيم باشا حسن الذى تولى الإدارة من ديسمبر ١٨٩١م.

والمصريون الذين شغلوا منصب مدير المستشفى هم :

محمد الشافعى	حتى يونيه ١٨٥٠م
حسين عارف	فى فترة وجيزة خلال ١٨٥٦م
محمد البقلى	من ١٨٦٣ حتى ١٨٧٩ م
محمد الشافعى	مرة أخرى من ١٨٧٠ حتى ١٨٧١م
(فترة إنقطاع إدارة البقلى)	
عيسى باشا حمدى	من ١٤ إبريل ١٨٨٣ م حتى ٩ أكتوبر١٨٨٩م
حسن باشا محمد	من ١٠ أكتوبر ١٨٨٩ حتى ٨ ديسمبر ١٨٩١م
إبراهيم باشا حسن	

وقد خرجت مدرسة الطب بقصر العينى – على بساطة نظمها– فى القرن الماضى المئات الذين أفادوا وطنهم ومواطنيهم، ونبغ منهم الكثيرون، وألفوا وترجموا العديد من الكتب. واللافت للنظر أنه بعد عودتهم من بعثاتهم فى أوروبا قاموا بتأليف كتب طبية باللغة العربية، تجمع بين الأدب والعلم ولاشك أن هذه الكتب تمثل البدايات الصحيحة للتعرف إلى المسميات العربية لعديد من المصطلحات الطبية الأجنبية.

***

(١) محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات من مصر القاهرة ١٧٨.